مقاصد القرآن الكريم عند الإمام الغزالي

د. ناجي فرج التكوري*

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد

فقد جاء القرآن الكريم ليكون هداية للناس في ظلمات هذه الحياة، ونبراسًا يضيء لهم الطريق إلى الدار الباقية، وقد تضمن من الأحكام والأخبار والوصايا ما يرشد الإنسان إلى طريق الخير ويبعده عن طريق الشر، ويخرجه من ظلمات الجهل، ويأخذ بيده إلى نور العلم.

والمتأمل في سور القرآن الكريم، والمتدبر لآياته بما تضمنته من أحكامٍ وأخبارٍ ووصايا يجد أنه اهتم بمقاصد هذا الدين بعامة، وكلياته الأساسية، ولم يعرج على تفاصيل الأحكام إلا في مواضعَ قليلة، ومواطنَ محددة؛ لأنّ القرآن كتابُ كل زمانٍ ومكان، كتابُ الماضي والحاضر والمستقبل، فاقتضى الحال أنْ يكون خطابه عامًّا وكليًّا، بما هو أساسي ومقصدي. من هنا جاءت كل سورة من سوَره تبْرز مقصدًا رئيسًا وهدفًا كليًّا تدور حوله السورة، إبرازًا له وتأكيدًا.

وقد تنبه العلماء -المتقدمون منهم والمتأخرون- إلى المنحى المقصدي في القرآن، فتحدثوا عنه إجمالاً وتفصيلاً، وأصالة وتبعاً، ومن هؤلاء العلماء الإمام الغزالي -رحمه الله- الذي كانت له نظرة خاصة حول مقاصد القرآن الكريم، بثّها في تصانيفه الكثيرة والمتنوعة وبخاصةٍ كتابه (جواهر القرآن)، الذي ألّفه بعد أنْ راض نفسه بالتّصوف؛ إذ وجد فيه الملاذَ والملجأ بعد بحثٍ شاقٍّ متواصل في البحث عن الحقيقة، وهذا ما أشار إليه في كتابه (المنقذ) حيث قال: "والقدر والقدر الذي أذكره لينتفع به. إني علمت يقيناً أنّ الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسنُ السِّير، وطريقَهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه

* محاضر بكلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الأسمرية الإسلامية. Na.altkore@asmarya.edu.ly

بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلًا، فإنّ جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به"[1].

والناظر في مؤلفات الإمام الغزالي كالإحياء وجواهر القرآن والمستصفى وغيرها يدرك بلا شك أن الإمام الغزالي كان له السبق في إبراز مقاصد كتاب الله تعالى، والإشارة إلى أسراره وحِكمه ودرره وجواهره، وقد غلب على تصانيف الإمام الغزالي استعمال الأسرار والمعاني في معنى المقاصد، وقد يعبر أحيانًا عن المقاصد بالحِكَم واللباب والجواهر والدرر كما جاء في كتابه جواهر القرآن[2].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه ينبغي التفريق بين مقاصد الصوفية والمقاصد عند الأصوليين، وهذا البحث يعنى بالمقاصد عند الصوفية، والتي ذكر الإمام النووي مجملها حيث قال: "في أصول التصوف هي خمسة: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضا عن الله تعالى في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء"[3].

يعدّ هذا البحث محاولة للكشف عن جانبٍ من الجوانب التي اهتم بها الإمام الغزالي في مجال المقاصد، ويُركز ضمن مجالات المقاصد التي اهتم بها الغزالي على المقاصد العامة لآيات القرآن وسوره، ومقاصد تلاوته وترتيله، بوصفه أنموذجًا يشهد لأبي حامد الغزالي بإحراز قصبات السبق في مقاصد القرآن الكريم، ويُبيّن منهجه ورؤيته الخاصة التي قد لا يضاهيه فيها كبار العلماء المشهورين، وهذا ما أشار إليه أحدُ المعاصرين بقوله: " ... وهو ما يشهد بأنّ لأبي حامد مكانةً مرموقةً في العناية بمقاصد الشريعة، وأنّ الخطوات التي

(1) المنقذ من الضلال، الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2006م، ص62.

(2) ينظر: مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي، محمد عبدو، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2009م، ص49.

(3) مقاصد التصوف، الإمام النووي، منشورات منتديات دار الإيمان، ص1.

خطاها والمبادئ التي نقحها وحرّرها في هذا الفنّ ظلت هي المبتدأ والمنتهى لعامة الأصوليين الذين جاءوا بعده"[4].

والمنهج المتبع في هذا البحث هو التحليل والاستقراء، وقد قسمتُه إلى مقدمةٍ ومبحثين وخاتمةٍ على النحو التالي:

المبحث الأول: في بيان المقاصد العامة للقرآن الكريم.

المبحث الثاني: في بيان مقاصد تلاوة القرآن.

وأما الخاتمة ففيها أهم نتائج البحث.

(4) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، بيروت، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي،1991م، ص37.

المبحث الأول:

في بيان المقاصد العامة للقرآن الكريم:

يُقرّرُ الإمام الغزالي في بداية حديثه عن المقاصد قاعدةً مهمّةً، هي:

أنّ القرآن هو البحر المحيط الذي يتشعب منه علم الأولين والآخرين، كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهاره وجداوله.

وهذه الحقيقة غابت عن أكثر الخلق -كما يرى الغزالي- وضلت أفهامهم عنها، فأدمنوا النظر إلى السواحل والظّواهر، وحُرموا الغوص في الأعماق لنيل الدرر والجواهر[1].

ثمّ بعد ذلك يبدأ الغزاليّ ببيان سرّ القرآن، ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى وهو: "دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، ربّ الآخرة والأولى، خالق السّموات العُلى والأرضين السّفلى، وما بينهما وما تحت الثّرى"[2].

من هذه النّظرة العامّة الشّاملة لمقصد القرآن الأقصى يرى الغزالي أنّ آيات القرآن الكريم -لتحقيق هذا المقصد- تنحصر في ستّة أنواعٍ تحت تقسيمين:

ثلاثة منها هي السّوابق والأصول المهمّة، وثلاثة أخرى هي الرّوادف والتّوابع المغنية المتمّة.

يقول الإمام: "أما الثلاثة المهمة فهي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه. وأما الثلاثة المغنية المتمة:

فأحدها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم، وسره ومقصوده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة، وكيفية قمع الله بهم وتنكيله لهم، وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب.

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق، وسره ومقصوده في جنب الباطل الإفضاح والتنفير، وفي جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقهير.

---

(1) ينظر: جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، الطبعة الخامسة، 1981م، ص8.

(2) المصدر السابق، ص9.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد. فهذه ستة أقسام"[1].

ويتناول الإمام الغزالي هذه الأقسام بشيءٍ من التفصيل، مبيناً تشعّبها إلى أربعة أقسامٍ أخرى، وكيفية تطابقها مع ما ذكر من أنواع اليواقيت والدرر وغيرها.

فالقسم الأول: تعريف المدعو إليه: وهو شرح معرفة الله تعالى، وذلك هو الكبريت الأحمر[2] -كما يرى الغزالي- وتشتمل هذه المعرفة على معرفة ذات الحق، ومعرفة الصفات، ومعرفة الأفعال، وهذه الثلاثة هي الياقوت الأحمر، فإنها أخص فوائد الكبريت الأحمر، وكما أن لليواقيت درجات فمنها الأحمر والأكهب والأصفر، وبعضها أنفس من بعض، فكذلك هذه المعارف الثلاثة ليست على رتبة واحدة، بل أنفسها، معرفة الذات، فهو الياقوت الأحمر، ثم يليه معرفة الصفات وهو الياقوت الأكهب[3]، ويليه معرفة الأفعال وهو الياقوت الأصفر[4].

فهذه جملة القسم الأول، وفيها أصناف اليواقيت، ويرى الغزالي أن آيات القرآن التي تتحدث عن هذا القسم هي زبدة القرآن، وقلبه، ولبابه، وسره، ومقصوده.

وقد ذكر الإمام الغزالي الآيات التي تتحدث عن هذا القسم وسماها بجواهر القرآن، والتي بلغت سبعمائة وثلاث وستون آية، منها سورة الفاتحة وسورة الإخلاص وغيرهما من السور والآيات التي تتحدث عن معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله[5].

---

(1) جواهر القرآن، ص9.

(2) يبين الغزالي ما يرمز إليه بهذه التسمية بأنه إذا كان الكبريت الأحمر عند الخلق في عالم الشهادة عبارة عن الكيمياء التي يتوصل بها إلى قلب الأعيان من الصفات الخسيسة إلى الصفات النفيسة كقلب الحجر ياقوتا والنحاس ذهبا، للتوصل إلى لذات الدنيا المنصرمة، فإن إطلاق هذا الاسم على ما يقلب جواهر القلب من ضلالة الجهل ورذالة البهيمية إلى صفاء الملائكة وروحانيتها وما ينال به القرب من رب العالمين أولى وأصدق. وبهذا يعلم سر التسمية، وهكذا باقي الرموز. ينظر جواهر القرآن، ص34.

(3) الأكهب والكهبة لون ليس بخالص في الحمرة، وهو في الحمرة خاصة. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى، 728/1، مادة "كهب".

(4) جواهر القرآن، ص15.

(5) ينظر: جواهر القرآن، ص52.

وأما القسم الثاني: وهو تعريف طريق السلوك إلى الله تعالى، حيث يرى الغزالي أن أساسه التبتل أي: الانقطاع إلى الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[1]، والانقطاع إليه يكون بالإقبال عليه، والإعراض عن غيره، وترجمته قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[2]، والإقبال عليه إنما يكون بملازمة الذكر، والإعراض عن غيره يكون بمخالفة الهوى والتنقي عن كدورات الدنيا وتزكية القلب عنها، والفلاح نتيجتها، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[3]، فعمدة الطريق أمران: الملازمة، والمخالفة، الملازمة لذكر الله تعالى، والمخالفة لما يشغل عن الله"[4].

وهذا القسم عند الغزالي هو الدر الأزهر، وهو مقصد عظيم، وبحر عميق من بحار القرآن. والآيات التي تتحدث عن هذا القسم وهو (درر القرآن) بلغت سبعمائة وإحدى وأربعون آية، منها بداية سورة البقرة والمؤمنون والنمل[5].

أما القسم الثالث: وهو تعريف الحال عند ميعاد الوصال، حيث يرى الغزالي أن هذا القسم يشتمل على ذكر الروح والنعيم الذي يلقاه الواصلون، والعبارة الجامعة لأنواع روحها الجنة وأعلاها لذة النظر إلى الله تعالى. كما يشتمل على ذكر الخزي والعذاب الذي يلقاه المحجوبون عنه بإهمال السلوك، والعبارة الجامعة لأصناف آلامها الجحيم، وأشدها ألما الحجاب والإبعاد[6].

ويرى الغزالي أن ثلث آيات القرآن وسوره يرجع إلى تفصيل ذلك، ويرمز الغزالي لهذا القسم بالزمرد الأخضر.

وأما القسم الرابع: فيحتوي على التعريف بأحوال السالكين والناكبين، أما أحوال السالكين فهي قصص الأنبياء والأولياء كقصة آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم،

(1) سورة المزمل: جزء من الآية 8.
(2) السورة نفسها: جزء من الآية 9.
(3) سورة الأعلى: الآيتان 14-15.
(4) ينظر: جواهر القرآن، ص12.
(5) ينظر: جواهر القرآن، ص109.
(6) ينظر: مشكاة الأنوار ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، ص28 -29.

وأما أحوال الجاحدين والناكبين فهي كقصص نمرود وفرعون وعاد، وغيرهم كثير في القرآن[1].

ويرى الغزالي أنّ مقصد هذا القسم هو الترهيب والتنبيه والاعتبار، وفي هذا القسم -بشقيه- يوجد العنبر الأشهب[2] والعود الرطب الأنضر[3].

وأما القسم الخامس: فيحتوي على محاجة الكفار ومجادلتهم، وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح، وكشف أباطيلهم في الألوهية والنبوة والبعث.

وفي هذا القسم -كما يرى الغزالي- يوجد الترياق الأكبر[4].

وأما القسم السادس والأخير: فهو تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية التأهب بأخذ الزاد، والاستعداد بكل ما يدفع عوائق الطريق.

ويشتمل هذا القسم -كما يرى الغزالي- على ما يسمى الحلال والحرام، وحدود الله، وفيها يوجد المسك الأذفر[5].

---

(1) ينظر: جواهر القرآن، ص15.

(2) العنبر: نوع من الطيب معروف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما هو شئ دسره البحر هو هذا الطيب المعروف، وقيل: العنبر: الزعفران. ينظر: لسان العرب، 603/4، مادة "عنبر".
والشهب والشهبة: لون بياض يصدعه سواد من خلاله، وقيل: الشهبة: البياض الذي غلب على السواد. والعنبر الجيد لونه أشهب. ينظر: لسان العرب، 508/1، مادة "شهب".

(3) يبين الغزالي معنى العود هنا بقوله: "وأما العود فهو عبارة عند الخلق عن جسم في الأجسام لا ينتفع به ولكن إذا ألقي على النار حتى احترق في نفسه تصاعد منه دخان منتشر فينتهي إلى المشام فيعظم نفعه وجدواه، فإن كان في المنافقين وأعداء الله أظلال كالخشب المسندة لا منفعة لها ولكن إذا نزل بها العقاب والاحتراق تصاعد منها دخان ينتهي إلى مشام القلوب فيعظم نفعه في الحث على طلب الفردوس الأعلى والصرف عن الضلالة والغفلة واتباع الهوى فاسم العود به أحق وأصدق". جواهر القرآن، ص35.

(4) ورمز هنا بالترياق الأكبر وهو عبارة عما يشفى به من السموم المهلكة للجسم، لأن سموم البدع والضلالات الواقعة في القلب مهلكة هلاكا أبديا، فلما كانت المحاجة البرهانية تشفي من تلك السموم وتدفع ضررها، كانت بالتسمية أولى. ينظر: جواهر القرآن، ص34.

(5) الذفر بالتحريك والذفرة جميعا شدة ذكاء الريح من طيب أو نتن، ومسك أذفر بين الذفر، وذفر أي ذكي الريح وهو أجوده. ينظر: لسان العرب، 306/9، مادة "ذفر". ويوضح الغزالي هذا المصطلح بقوله: "وأما المسك الأذفر فهو عبارة في عالم الشهادة عن شئ يستصحبه الإنسان فيثور منه رائحة طيبة تشهره وتظهره حتى لو أراد إخفاءه لم يختف لكن يستطير وينتشر، فانظر إن كان في المقتنيات العلمية ما ينشر منه الاسم الطيب في العالم ويشتهر صاحبه به اشتهارا لو أراد الاختفاء لم يستطع، فاسم المسك الأذفر عليه أحق وأصدق... وعلم الفقه، ومعرفة أحكام الشريعة كذلك". جواهر القرآن، ص35.

وبهذا تنتهي الأقسام الستة التي انحصرت فيها سور القرآن وآياته، والتي تدور جميعها في فلك مقصد القرآن الأقصى، ولبابه الأصفى وهو: دعوة العباد إلى الله، لكنها بعد تشعبها صارت عشرة أنواع -كما يرى الغزالي- هي:

ذكر الذات، وذكر الصفات، وذكر الأفعال، وذكر المعاد، وذكر الصراط المستقيم، ويشتمل على جانبي التزكية والتحلية، وذكر أحوال الأولياء، وذكر أحوال الأعداء، وذكر محاجة الكفار، وذكر حدود الأحكام[1].

وهذه الأنواع العشرة هي مجامع ما تنطوي عليه سور القرآن وآياته عند الغزالي، وعنها تتشعب جميع العلوم.

ويرى الغزالي أن هذه العلوم على نمطين -بحسب قربها وبعدها من مقصد القرآن الأقصى- هما:

1- علم القشر والصدف:

يرى الغزالي أن صدف جواهر القرآن وكسوته اللغة العربية، وتنشعب منه خمسة علوم هي علوم الصدف والقشر، وهي على ترتيب الغزالي ما يلي:

علم مخارج الحروف، علم اللغة، علم النحو، علم القراءات، علم التفسير[2].

ويرى الغزالي أن هذه العلوم ليست على مرتبة واحدة، بل للصدف وجه إلى الباطن، ملاق للدر قريب الشبه به لقرب الجوار ودوام المماسة، ووجه إلى الظاهر الخارج، قريب الشبه بسائر الأحجار لبعد الجوار وعدم المماسة، فكذلك هذه العلوم، ولذا فإن علم التفسير هو الطبقة الأخيرة من الصدفة القريبة من مماسة الدر، ولذلك يشتد به شبهه حتى يظن الظانون أنه الدر، وليس وراءه أنفس منه، وبه قنع أكثر الخلق[3].

ويرى الغزالي أن أصحاب هذا العلم وإن كانوا محرومين لوقوفهم على الصدف، إلا أنهم على رتبة عالية شريفة بالنسبة لمن سواهم من باقي أصحاب علوم الصدف، إذ علم التفسير عزيزٌ بالنسبة إلى تلك العلوم، فإنه لا يراد لها، بل تلك العلوم تراد للتفسير[4].

(1) ينظر: الأربعين في أصول الدين،لأبي حامد الغزالي، دار المنهاج، بيروت، ط1، ص79.

(2) ينظر: الرسالة اللدنية ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص65.

(3) ينظر: جواهر القرآن، ص18-19.

(4) ينظر: المصدر السابق، ص18-19.

2- علوم اللباب:

وتشمل الأقسام الستة السابقة، وقد جعلها الغزالي على طبقتين -بحسب قربها وبعدها من المقصد الأقصى للقرآن- هي: الطبقة العليا: وهي السوابق والأصول من العلوم المهمة. والطبقة السفلى وهي: التوابع من العلوم المتممة.

أما علوم الطبقة السفلى فهي[1]:

(أ) علم معرفة قصص القرآن، وما يتعلق بالأنبياء، وما يتعلق بالجاحدين والأعداء، ويتكفل بهذا العلم القصاص والوعاظ وبعض المحدثين.

(ب) علم محاجة الكفار ومجادلتهم، ومنه يتشعب علم الكلام المقصود لرد الضلالات والبدع وإزالة الشبهات، ويتكفل بهذا العلم المتكلمون.

(ج) علم الحدود الموضوعة للاختصاص بالأموال والنساء للاستعانة على البقاء في النفس والنسل. وهذا علم الفقه، وهو عند الغزالي علم تعم الحاجة إليه لتعلقه بصلاح الدنيا أولا ثم بصلاح الآخرة. وهذا العلم يتولاه الفقهاء.

وأما علوم الطبقة العليا فهي[2]:

(أ) العلم بالصراط المستقيم وطريق السلوك، وهو علم معرفة تزكية النفس بالتخلية والتحلية.

(ب) العلم باليوم الآخر، وهو علم المعاد الذي أشار إليه الغزالي من قبل بتعريف الحال عند ميعاد الوصال، وهذا العلم له اتصال بعلم المعرفة، ولذا فهو يتلوه في الشرف.

(ج) علم معرفة الله تعالى، وهو أعلى هذه العلوم وأشرفها، لأن سائر العلوم تراد له، ومن أجله، وهو لا يراد لغيره.

ويترقى فيه من الأفعال إلى الصفات، ثم من الصفات إلى الذات، فعلم الذات أعلاها، ولا تحتمله أكثر الأفهام.

فهذه هي مجامع العلم التي تتشعب من القرآن ومقاصدها عند الغزالي.

بهذا نجد أنفسنا أمام منهجٍ فريدٍ يفرض علينا تقديره، ورؤيةٍ خاصةٍ تحتم علينا التعامل معها تعاملًا موضوعيًا، في محاولةٍ لفهم حقائق القرآن وبيان مقاصده، وهو منهجٌ

(1) ينظر: الرسالة اللدنية، ص63، وينظر: الجواهر، ص21.

(2) ينظر: ميزان العمل، للإمام الغزالي، حققه وقدم له: د سليمان دنيا، دار المعارف، ص352.

متميزٌ في جملته، ويرجع هذا إلى تأثر الإمام بالمعرفة الصوفية وتجربته فيها، وثقافته في علم النفس، وخبرته به، وحرصه على إصلاح النفس وتهيئتها للارتقاء إلى مستوى الفهم القرآني من خلال منهج مقاصدي تربوي.

المبحث الثاني:
في بيان مقاصد تلاوة القرآن:

ذكر الإمام الغزالي في "الإحياء" كتابا لآداب تلاوة القرآن، تحدث فيه عن ظاهر آداب التلاوة في عشر نقاط، ثم أتبعها بعشر نقاط أخرى في المقاصد المرجوة من تلاوته والتي سماها بالأعمال الباطنة للتلاوة، وهذا تقسيم جديد في هذا المجال، فلم أجد من علماء التفسير وعلوم القرآن من تناول هذا الموضوع بمثل هذا التقسيم، ولا شك أن لتصوف الإمام الغزالي تأثيرًا كبيرًا على مبنى هذا التقسيم ومادته أيضًا، فالتمييز في الأعمال والأقوال بين الظاهر والباطن، أو بين ظواهر الأشياء وخفاياها؛ أي: مقاصدها كان غالباً على الإمام الغزالي في مؤلفاته حتى إنه يُعد من خصائص معالم منهجه الفكري.

وقبل أن يذكر الإمام الغزالي المقاصد المرجوة من تلاوة القرآن الكريم يرى ضرورة مراعاة الأحكام الظاهرة عند التلاوة حتى تتحقق الاستفادة الكاملة من القرآن الكريم؛ لأن الشارع الحكيم وضع مقاصد وراء كل حكم من الأحكام الظاهرة، لذلك كان من اللازم أن نشير إلى هذه الأحكام الظاهرة قبل الخوض في المقاصد والأسرار، التي منها -كما يذكر الغزالي-:

1- **في حال القارئ**: "وهو أن يكون على الوضوء، واقفا على هيئة الأدب والسكون، إما قائما وإما جالسا، مستقبل القبلة، مطرقا رأسه، غير متربع ولا متكئ، ولا جالس على هيئة التكبر"[(1)].

2- **في مقدار القراءة**: يرى الإمام أن ختم القرآن مرة في الأسبوع أو مرتين درجة وسط بين الاستكثار والاختصار، إذ به يحصل التدبر والتفكر في كلام الله بواسطة ترتيله، كما يرى الإمام أن مقدار القراءة يرتبط بحال القارئ، فإن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع، وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرة. وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي في الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل[2].

(1) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 374/1.

(2) ينظر: الأربعين في أصول الدين، ص76.

3- **في وجه القسمة**: يرى الإمام أن يقسم القرآن إلى سبعة أحزاب تمشيا مع عمل الصحابة رضوان الله عليهم، ومماروي عن النبي ﷺ في تحزيب القرآن على سبعة أجزاء[1].

4- **في الكتابة**: يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه عند الغزالي، ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها، فإنها تزيين وتبيين، وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه[2]. وقد ذكر الإمام أن هناك من أنكر ذلك، وأوضح حجتهم بقوله: "وروي عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالحمرة، وأخذ الأجرة على ذلك، وكانوا يقولون جردوا القرآن. والظن بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفا من أن يؤدي إلى إحداث زيادات، وحسما للباب، وتشوقا إلى حراسة القرآن عما يطرق إليه تغييرا. وإذا لم يؤد إلى محظور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به. ولا يمنع من ذلك كونه محدثا، فكم من محدث حسن كما قيل في إقامة الجماعات في التراويح إنها من محدثات عمر ﷺ وأنها بدعة حسنة"[3].

5- **الترتيل**: يستحب ترتيل القرآن عند الغزالي، وذلك لأنه يعين على التدبر والتفكر، وبه يحصل التوقير والاحترام لكلام الله تعالى، ويكون أشد تأثيرا في القلب من الهذرمة والاستعجال[4].

6- **البكاء**: يرى الغزالي استحباب البكاء مع القراءة، وذلك امتثالا لقوله ﷺ: "اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا"[5]، وإنما طريق البكاء أن يحضر قلبه الحزن، فمن الحزن ينشأ البكاء، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب[6].

---

(1) أخرج ابن ماجه من حديث أوس بن حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: "إنه طرأ علي حزبي من القرآن فكرهت أن أخرج حتى أتمه" قال أوس: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل. كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ماجاء في كم يستحب يختم القرآن، رقم الحديث 1406، 314/4.

(2) ينظر: الإحياء، 375/1.

(3) الإحياء، 375/1-376.

(4) ينظر: الإحياء، 376/1.

(5) أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في حسن الصوت بالقرآن، رقم الحديث 1337، 424/1. قال العراقي: إسناده جيد. ينظر: المغني عن حمل الأسفار، 376/1.

(6) ينظر: الإحياء، 376/1.

7- **مراعاة حق الآيات**: وذلك إذا مر بآية سجدة سجد، وإذا مر بآية تسبيح سبح وكبر، وإذا مر بآية عذاب استعاذ، وإذا مر بمرجو سأل، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر[1].

8- **أن يقول في مبتدأ قراءته**: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [2]، وليقل عند فراغه من القراءة: صدق الله تعالى، وبلغ رسول الله ﷺ، اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه، الحمد لله رب العالمين، وأستغفر الله الحي القيوم[3].

9- **الجهر بالقراءة**: يرى الغزالي ضرورة الجهر بالقراءة، وأقل الجهر أن يسمع القارئ نفسه، وأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه، ومكروه على وجه آخر، وقد جمع الغزالي بين الأحاديث الواردة في استحباب وكراهة الجهر بالقرآن بقوله: "فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل، لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته أيضا تتعلق بغيره، فالخير المتعدي أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه، ويصرف إليه سمعه، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت، ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة، ويقلل من كسله، ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه، ولأنه قد يراه غافلا فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة، فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل"[4].

(1) ينظر: الإحياء، 377/1.

(2) سورة المؤمنون : الآيتان 97-98 .

(3) ينظر: الإحياء، 377/1.

(4) المصدر نفسه، 379/1.

10- تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم، فذلك سنة. قال ﷺ: "زينوا القرآن بأصواتكم"[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: "ما أذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن"[2]، وقال ﷺ: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن"[3].

وأما المقاصد المرجوة من تلاوة القرآن الكريم فهي ما يلي:

1- **فهم عظمة الكلام**، وعلوه، وفضل الله سبحانه وتعالى، ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش الجلالة إلى درجة إفهام خلقه. فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه. ولولا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره[4].

2- **التعظيم للمتكلم**: فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، وأن في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر، فإنه تعالى قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[5]، وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا، فباطن معناه أيضا بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس، ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير[6].

---

(1) أخرجه أبو داود، كتاب الوتر، باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم الحديث 1470، 548/1، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في حسن الصوت بالقرآن، رقم الحديث 1342، 426/1. والنسائي، كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت، رقم الحديث 1023، 150/4.

(2) أخرجه البخاري بلفظ "ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن"، كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن، رقم الحديث 5024، 22/17، ومسلم بلفظ "ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به"، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم الحديث 1881، 192/2.

(3) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله "وأسروا قولكم أو اجهروا به"، رقم الحديث 7527، 55/8.

(4) ينظر: الأربعين في أصول الدين ص77، وينظر: الإحياء، 380/1-381.

(5) سورة الواقعة: الآية 79.

(6) ينظر: الإحياء، 381/1.

والتعظيم يكون بالتفكر في صفات الله وجلاله وأفعاله، فإذا حضر ببال القارئ العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس، علم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبضله، وإن عاقب فبعدله[1].

3- **حضور القلب وترك حديث النفس**: وهذه الصفة كما يرى الغزالي تتولد عما قبلها من التعظيم، فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلا له، فكيف يطلب الإنس بالفكر في غيره؟ وهو في متنزه ومتفرج، والذي يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها، فقد قيل إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضا وخانات، فالميمات ميادين القرآن، والراءات بساتين القرآن، والحامدات مقاصيره، والمسبحات عرائس القرآن، والحاميمات ديابيج القرآن، والمفصل رياضه، والخانات ما سوى ذلك، فإذا دخل القارئ الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديابيج، وتنزه في الرياض، وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه، فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره[2].

4- **التدبر**: وهو وراء حضور القلب، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. والمقصود من القراءة التدبر، ولذلك سن فيه الترتيل، لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن[3].

5- **التفهم**: يُعرّف الغزالي التفهم بقوله: "هو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار"[4].

(1) ينظر: الإحياء، 382/1.

(2) ينظر: المصدر نفسه، 382/1.

(3) ينظر: الإحياء، 382/1.

(4) المصدر السابق، 383/1.

6- **التخلّي عن موانع الفهم**: يرى الغزالي أن أكثر الناس منعوا من فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن، وحجب الفهم أربعة[1]:

أولها: أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه. فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف، فأنى تنكشف له المعاني؟

ثانيها: أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة.

ثالثها: أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون.

رابعها: الاعتقاد أن التفسير المنقول عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما هو المراد من تفسير القرآن وينبغي الوقوف عنده، أما ما وراء ذلك فهو يعد من تفسير القرآن بالرأي المنهي عنه.

7- **التخصيص**: وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر بحكاياتهم فقط غير مقصود لذاته، وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي وأمته[2].

8- **التأثر**: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره، فعند آيات الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند آيات

(1) ينظر: الأربعين في أصول الدين، ص79-80 والإحياء، 383.

(2) ينظر: الإحياء، 384/1.

التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته.. وهكذا في كل آيات القرآن[1].

9- **الترقي**: ويقصد به: أن يترقى القارئ في تلاوته إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه[2].

ودرجات القراءة عند الغزالي ثلاثة[3]:

الأولى: وهي أدنى الدرجات، أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز جل، واقفا بين يديه، وهو ناظر إليه مستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتضرع والابتهال.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه، ويخاطبه بألطافه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصور الهم على المتكلم، موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره.

10- **التبري**: ويعني به الغزالي: أن يتبرأ القارئ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية عند تلاوته، فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها، ويتشوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفا وإشفاقا. ومهما كان مشاهدًا نفسه بعين الرضا صار محجوبًا بنفسه، فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته كشف له سرّ الملكوت[4].

بهذا تنتهي مقاصد التلاوة عند الإمام الغزالي، وبها يتَّضحُ أن همته (رحمه الله) كانت مصروفة إلى معرفة المعاني والأسرار والمقاصد وهو ما صّرح به بنفسه في كتابه المستصفى حيث قال: "فصنّفتُ كُتُبًا كثيرة في فروع الفقه وأصوله ثم أقبلتُ بعده على

(1) ينظر: الإحياء، 387/1.

(2) ينظر: ميزان العمل، ص367.

(3) ينظر: الإحياء، 390/1.

(4) ينظر: المصدر السابق، 290/1.

طريق الآخرة ،ومعرفة أسرار الدين الباطنة، فصنفتُ فيه كُتُبًا بسيطة ككتاب إحياء علوم الدين، ووجيزة ككتاب جواهر القرآن، ووسيطة ككتاب كمياء السعادة"[1] .

فالمقاصد هي روحُ الأعمال -كما يذكر الغزالي- فإن وجد الأعمال بلا مقاصد، فاعلم أنه عَمَلُ بلا روح، فكرُ بلا روح ، تحركُ بلا روح.

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث أودُّ أن أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها، والفوائد التي وقفت عليها، وهي كما يلي:

1- أثبت هذا البحث أنّ الإمام الغزالي يُعدُّ من العلماء الأوائل في علم المقاصد الذين صرفوا جمام العناية في رفع الغطاء عن وجوه أسرار القرآن الكريم، وكشف الحجاب عن مقاصده، والتذليل على حِكمه ومعانيه.

2- إن معرفة المقاصد العامة للقرآن الكريم تُعين المسلمَ على فهم مراد الله تعالى وبيانه من خلال ما تضمنه من مواعظَ وأمثالٍ وقصصٍ وأحكامٍ.

3- يُعدّ فهم المقاصد خطوة أولية وضرورية للوصول إلى حقائق القرآن وأسراره وحِكمه وغاياته.

4- هداية النّاس وإرشادهم وتوجيههم مقصد أساس مِن أهم مقاصد القرآن الكريم.

5- يرى الغزالي أنّ كمال السّعادة بقدر معرفة مقاصد القرآن الكريم، والاطلاع على أسراره وحِكمه وغاياته.

6- للقرآن الكريم أحكام ظاهريّة عديدة مراعاتها شرطٌ أساس للإفادة من مقاصده وأحكامه الباطنة.

(1) المستصفى من علم الأصول، للإمام الغزالي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 14/1.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية قالون عن نافع.

1- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، ضبط نصه وخرج أحاديثه: دمحمد محمد تامر، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004م.

2- جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ط5، 1981م.

3- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

4- سنن النسائي، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار الحديث، القاهرة.

5- سنن أبي داود، للإمام الحافظ سليمان بن الأشعت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

6- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998م.

7- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

8- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر ، بيروت، الطبعة الأولى.

9- المستصفى من علم الأصول، لأبي حامد الغزالي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة الأولى.

10- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، لأبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، بهامش كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي، مؤسسة المختار، القاهرة.

11- مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي، محمد عبدو، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2009م.

12- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، بيروت، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1991م.

13- ميزان العمل، للإمام أبي حامد الغزالي، حققه وقدم له: د.سليمان دنيا، دار المعارف.
14- الأربعين في أصول الدين، للإمام أبي حامد الغزالي، دار المنهاج، بيروت، الطبعة الأولى، 2006م.
15- الرسالة اللدنية ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2006م.
16- مشكاة الأنوار ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2006م.
17- مقاصد التصوف، الإمام محيي الدين النووي، منتديات دار الإيمان.
18- المنقذ من الضّلال، الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2006م.